فشل فولكمار

رن جرس الباب ففتحته، وفوجئت بمرأى سينا موريا بثيابها البيضاء تتقدّم نحـوي وتعانقني بلهفة.. لم أستطع أن أقول لها بأن عفيف قد حظر علي استقبالها فـي بيتـي.. تملكني الحرج حين قالت: "اشتقت لكم كثيرا!".. أنا لم أحقد عليها أبدا، فهي كامرأة عانت أكثر مني، وما عدت أخشى منافستها لي في زوجي.. درست شخـصيتها جيـدا، فهـي وعفيف متنافرا الهدف، متنافرا البيئة النفسية متنافرا الصفات، وكنت واثقة أنه لو تزوجها لما احتملها أكثر من شهر عسل واحد.. فالتناقضات كثيـرة بينهمـا، والـشيء الواحـد المشترك أن واحدا منهما لا يتنازل للآخر قيد شعرة..

وقفت كعادتها أمام صورته النصفية وقالت "كم له من بسمة رائعة، هكذا كان يـوم عرفته وأحببته.."

ذكرت قوله لي ذات يوم: "الإبتسامة تفتح طريقك الى قلوب الناس الغريـاء.. بنـك يدخل عليه مئات الألوف ولا يسأل شخص عن آخر.. موظف دائما مشغول ينشرح قلبـه حين يرى وجها مبتسما، يفضلك على غيرك من الوجوه القلقة والمستاءة.. دائمـا كانـت أموري ميسّرة تحلّ دون انتظار وتأفف.. مثلا هذا الخباز ماذا اشترينا منه؟ كيلو خبـز.. أنظري كيف احتفل بنا.. أنا دائما أعامل الباعة بلطف كبير وهم يـردون لـي المعاملـة بأحسن منها.. الناس عندهم الكثير من الطيبة واللؤماء قلّة"..

جلست على الديوان حيث اعتادت أن تجلس، وسألتني عن الأولاد، قلت لهـا بـأن سلام ويوسف تخرجا كمهندسين، ولكن يوسف عليه أن يخدم العسكرية عـامين ويقـوم بالخدمة المدنية لخمسة أعوام أخر وكذلك سلام، وهذا القانون الذي أقـر حـديثا يعيـق الشباب المثقفين من الدراسة في الخارج على حسابهم، أوالذهاب الى دول الخليج لكـسب المال.. أما نضال فهو في السنة الأخيرة في فرع الفيزياء، وبما أنه متفوق في دراسـته فأمامه فرصة السفر الى الخارج في بعثة، ولن يكون حينذاك ملزما الا بالخدمة العسكرية حين يعود.. ورفاه أيضا دخلت كلية الهندسة وكانت تنوي أن تدخل كلية الطب فقـصرت علاماتها عن ذلك بعلامة واحدة.. وما كانت بين زمرة المحابين من النظام.. لا بأس في هذا، ولعلهم يؤلفون في المستقبل عملا مشتركا.. أخبريني عن فولكمار..

تنهدت سينا موريا وقالت:

-أجد عناء كبيرا مع فولكمار.. انه يتصرف معي بدون احترام ولا حـب، ويقبـل على دراسته بنفور ولا مبالاة، وقد علق في سنة التخرج الأخيرة ويفشل عاما بعد عام!..

دخل عفيف بعد أن أحضر حاجة البيت، وفوجئ بوجود سينا، سلم كأنما كان قدومها منتظرا وياسر عرفات محاصرا في طـرابلس.. خـاب ظنـه بـالكثيرين: بأصـدقائه والفلسطينيين، بالقوميين والـشيوعيين والبعثيـين، بالمـسلمين والمـسيحيين، بالـدروز والعلويين.. كلهم يرتمون على أقدام أمريكا، كلهم يتذابحون على إرضائها وكلهم يذبحون المقاومة في لبنان. فلماذا يصب جام غضبه على امرأة أجنبية تسعى من أجل السلام فـي المنطقة، تحت المظلة الأمريكية وبعقلية توراتية؟

انكمش على نفسه خلال سنوات خيبات الأمل يكتب دراسات نظرية، مذكرات تختلط بدراسة المرحلة التي رافقتها، دراسات سياسية وعسكرية، ترجمات لكتـب علميـة فـي الفيزياء والرياضيات والنسبية..

سألها عن نفسها فأخرجت صورا من حقيبتها وأرته اياها: كانت قد حصلت علـى شهادتين: واحدة في الطب النسائي وأخرى في اللاهوت. وأصبحت تدعى دكتـور سـينا موريا.. هنأها على نجاحها وناولني الصور.. كانت ثلاث صور: في أحداها كانت تقـوم بتوليد امرأة، وفي أخرى تحمل الصبي الوليد، وفي الثالثة تستلم شهادة اللاهوت من كلية دينية..

كان الهم الأول لعفيف أن يعرف مدى نجاح فولكمار في الحياة، فلما أطلعته بما كان من فشله أغمض عينيه كأنما دار رأسه ولم يتفوه بكلمة.. كان شاغل حياته أن لا يفـشل أبناؤه.. ذكرت حديثا له ابّان دراستهم الجامعية..

-هذا ما أخشاه عليهم.. الفشل.. ان فشل الرجل ينتقل الى ذريته.. الجحيم لـيس الاّ هذا.. تعب البيت لا يضيع سدى.. انني أندم من أجل كل لحظة لهو مرت في حيـاتي.. لماذا غضبت عليهم؟ هذه الحياة التي يحيونها غير طبيعية.. أن يضيعوا أشهر الفرصة في المسابح والسينما والسهر حتى منتصف الليل ويفيقوا عند الظهر، هذه حياة حـشاشين، لا أولاد يريدهم الإنسان، وخصوصا من هو في مثل وضعي، أن يراهم في الطليعة.. عندهم مراجع رائعة لو يقرؤوها ولكن أين هم منها؟ قليلا، قلـيلا ويتفـتح ذهـنهم وإدراكهـم

ويجدون أنفسهم يمتلكون المعرفة.. هذا ما يفعله المبرزون دوما.. انهم لا يتركـون أبـدا الكتاب، الكتاب الذي يزودهم بالمعرفة.. لا الروايات!

قال لسينا: لابد أنك قصرت كثيرا في رعاية فولكمار حتى يفشل هذا الفشل الذريع.. أين طموحه الذي حدثني عنه في أن يصبح قاضيا في محكمة لاهاي؟ أتظنين يهمنـي أن أعرف عن نجاحاتك الخاصة في الوقت الذي يفشل فيه ابني وابنك.. ألـم تراقبيـه؟ ألـم تحفزيه للإجتهاد، ألم تبصريه بعواقب المتهاونين في دروسهم؟ أتنزل عليه بعد هذا الفشل ثروة من السماء؟

انفجرت فيه سينا موريا وقالت:

-فشله كان بسببك.. لا أدري ماذا قلت له عني! فقد الثقة بي وبأهدافي.. في أعماقه صراع بين عالمك وعالمي، ولا يعرف الى أي منهما ينتمي.. أنت لم تساعده أبدا في شق طريقه في الحياة.. لم يكن قربه أب يحفزه ويكون مثله الأعلى..

-يجب أن يعاود الإمتحان النهائي مهما كان الثمن.. في سـنه لا يحتـاج الـى أب يحفزه، يشق طريقه ولو كان مليئا بالأشواك، يناضل للحصول على مكانته الإجتماعية ولا يبقى عالة على والده أو والدته..

-مللت من نصحي له ولكنه لايبالي..

-لقد طاش أولادي حين دخلوا الجامعة، ولكنني وضعت حدا لطيشهم.. كان يجـب أن تردعيه عن اللهو ولو بالعصا..

-أولادك لهم بيت مستقر، أما فولكمار، فلا يمكنني أن أسيطر عليه بوضعي.. انـه يكرهني حتى بت أكره اليوم الذي استبقيته فيها في أحشائي.. هذا إحساسي تجاهه اليوم.. ليس بيننا صداقة أو تفاهم كي يردعه حبي، انني أخشى حتى أن يدمن المخدرات.. افعل شيئا من أجله وأنقذه، وضعه تحت حمايتك، انه شاب لامع يتقن ثلاث لغات.. راسله على الأقل، دعه يشعر أن هناك أسرة تهتم به وتريد صالحه..

قلت لها بأن يوسف راسله فترة من الزمن، ولكنه لم يكن يرد على رسائله فـانقطع عن مراسلته.

كان من الصعب على عفيف أن يصل جسور الود بينه وبين فولكمار، أو أن يتظاهر بما لا يحسه نحوه في أعماقه. ولقد زاد فشل فولكمار في دراسته من الهوة التـي تباعـد

بينهما ولا يسهل ردمها.. فهو لا يعلم عن المؤثرات الـسلبية والإيجابيـة التـي كوّنـت شخصيته.. وهو لا يملك الطبع المرن الذي يسهل رفع الكلفة حتى بينه وبين أولاده الذين رافق نموهم يوما بعد يوم، وأحبهم بكل ما يملك من طاقة روحية..

قال لسينا موريا:

-ماهي الطريقة التي أنقذه بها وأضعه تحت حمايتي؟ آتي به الى دمشق؟ هـا هـي سلام ويوسف أصبحا مهندسين، ولكن رواتبهما لا تكفي ليتدبرا أمرهمـا ويـستقلا فـي شؤونهما، فكيف يتدبر فولكمار أمره بلا شهادة ولا وظيفة ولا إمكانية عمل حر.. لو كنت أملك ثروة لربما استطعت أن أفتح له محلا تجاريا كما يفعل آباء الفاشلين في دراستهم ان كانوا أغنياء، ولكن العبء علي ثقيل براتبي المحدود، ولا أستطيع أن أتحمل عبئا إضافيا، ولن يفيد فولكمار الاّ أن يبقى في بلاده، وليحمد الله أنه يعيش في بلد متطور يفـتح كـل الإمكانيات لمن يبذل جهدا ولا يعيش عيش الكسالى..

تركتهما وذهبت الى المطبخ لأعد طعام الغذاء وأنا أذكر ماكان يقوله لي في معرض اللهو الذي كان يحظره على أولادنا أثناء دراستهم:

-أنا لم أصل الى ماوصلت اليه بالهين.. كانوا يقولـون عنـي أنـه يقـرأ كتـاب الرياضيات كما يقرأ غيره رواية أرسين لوبين.. لم يكن هناك مـن مـسألة لا أسـتطيع حلها.. دائما كنت الأول في الثانوي وفي الجامعة.. أساتذتي في الكلية العسكرية وهم من خيرة الأساتذة الأجانب كانوا يقولون لي:"مسيو بزري، عندك هنا شيء غريـب، ذهـن صاف كالبلور" هل حصلت على هذا بتمضية أوقاتي في اللهو؟ ومع ذلك أندم على كـل لحظة لهو.. العمر ليس طويلا ليضيعه الإنسان هباء.. والعبقرية ثلاثة أرباعهـا دراسـة وجلد وصبر والربع ذهن متفوق..

وأذكر حديثا آخر عن الحافز الداخلي.. قلت له:

-كل الآباء يتمنون أن يروا أبناءهم متفوقين، ولكن التفوق يأتي بحافز داخلي..

-لماذا لا يملكون الحافز الداخلي؟ أي بيت مثل بيتنا يتيح لأبنائه التفـوق؟ سـنوات طويلة وأنا أدرسهم وأنت كذلك ونعنى بهم ولكنهم صاروا يتململون.. المجتمـع والنـاس والرفاق وأنت شجعتهم على ذلك.. انك لا تقفين الى جانبي ويزداد ولعهم باللهو كل عام، ويتناقص اهتمامهم بالعلم.. هذا ما نحصده اليوم..

-ياعفيف، ماذا يقول الآباء الذين يفشل أبناؤهم؟ يجـب أن يـذبحوهم علـى هـذا المقياس.. أولادنا ينجحون كل عام بعلامات جيدة فنلومهم لأنهم ليسوا عبـاقرة ولا هـم متفوقون؟

قال غاضبا: وسط، وسط، وسط، أنا لاتعجبني هذه البـدايات.. مئـات يـسبقونهم ويحتلون الأماكن البارزة وهم أقدر منهم على الحياة.. يدفعون بمناكبهم ويـصعدون، ان استحقوا هذا أولم يستحقوه.. ليس لأولادنا الاّ أن يتفوقـوا بـشكل لا يـستطيع أحـد أن يتجاوزهم.. أين مكانهم ان لم يبرزوا في العلم والمعرفة ولا يجعلوا للّهـو الأوليـة فـي حياتهم؟..

-أنا لا أفهم أبدا هذا الخوف الدائم من فشلهم.. لماذا يفشلون؟ قد لا يبرزون كالعلماء الكبار ولكنهم يكونون حتما من الناجحين.. اننا لا نجعلهم بجو من الإطمئنان النفسي بهذا السوق القسري الى الكمال.. نجعلهم في رعب دائم من غضبنا واستيائنا..

-رعب! أنا وحش لأنني أريد مصلحتهم؟

-لا أريد أن يتحول حوارنا الى انفعال.. انني أتمنى أيضا لو أراهم متفوقين، ولكنني أجد أننا نسلك طريقا خطرة في معاملتنا اياهم، تجعلنا نقع في ما نخشاه عليهم ونكون نحن السبب، ونعض قلوبنا طوال العمر من أجلهم!

ذكرت فجأة أن هذا الحديث قد جرى بعد زيارة سينا موريا الثانية وكـان عفيـف متوتر الأعصاب لما سمعه عن فولكمار.. ترى ماهو شعوره الآن وهـو يواجـه فـشل فولكمار؟..

في حديثنا بعد الغذاء تطرقت للحديث عن ياسر عرفات الذي كان حينذاك محاصرا في طرابلس، قالت لعفيف:

-ان قُتل ياسر عرفات فمن تظنه البديل له في قيادة المنظمة؟ أجابها:

-ليس هناك بديل لياسر عرفات، انه يستقطب الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة..

-ما رأيك بفاروق قدومي؟

-ليس له مناصرون في المنظمة.. انه عدو ياسر عرفات، وحليف سوريا..

-ما رأيك بياسر عبد ربه؟

-على ما أعلم أنه من جماعة نايف حواتمة وهم منظمة موالية لسوريا وللسوفييت..
لم يكن مرتاحا للحديث معها كان يفكر بفولكمار وقال لي بعد سفرها:

-هذه المرأة لا تأتي لزيارتنا الاّفي أزمة تمر بها البلاد.. انها مبعوث غير رسمي لجهة تدفع لها، والاّفأنى لها أن تتحمل نفقات سفرها، ونزولها فـي أفخـم الفنـادق؟ لا أحسب أن أمر فولكمار يهمها، ولكن في الواقع أثارت في نفسي قلقا عظيما عليه..

جعلني أكتب رسالة لفولكمار أملاها علي لأكتبها بالإنجليزية، كانت بشكل لبق كأنها تبعد فولكمار عن حياتنا الى حين:

أحب كثيرا أن أستمتع بفرصة رؤياك في بيتنا الذي هو بيتك، بعد أن تنتهي دراستك كما وعدتني، أما في الوقت الحاضر فانني آسف أن أقول بأن ذهني مشغول جدا بقلق لم تستطع آمالي أن تهدئه. فالعائق هو لظروف خارج ارادتي، بالإضافة الى صعوبات مادية ملأت حياتي بالمرارة.

انني أعتمد على فهمك اللماح بالطلب منك أن تؤجل زيارتـك الآن آمـلا أن أجـد فرصة أكثر مناسبة لي ولك في ايجاد بديل أفضل.

آمل أن لا تكون معارضا لوضع مستقل، موقف رجل يبحث في كل خطواته عـن الحقيقة، ويكون له قلب كبير متسامح مع أخطاء الآخرين..

* * *